

الاغتراب ... الشاعر... والمدينة

الأستاذ: بن ناجي محمد لخضر

قسم اللغة العربية وآدابها

أستاذ مساعد(أ) جامعة سعد دحلب -البليدة-

عاش الإنسان منذ أقدم العصور جدلية المكان والاغتراب وعاني الابتعاد عن الأهل والوطن وولّد كل ذلك في ذاته الشعور بالحنين والتألم من الهجر والفراق، وقد أحس بتعقد هذا الانقسام بتطور الزمن وتعاقب العصور والأيام، فلم يعد المكان هو ذلك الطلل القديم الذي نعاه عنثرة أو بكى عنده امرؤ القيس وإنما ارتبط هذا المكان بصراعات تطور الواقع العربي وانتقال العرب من البداوة إلى الحضارة خلال العصر العباسي، لتكون بغداد بخاصة صورة حية لهذا الواقع الجديد خلال هذه الحقبة التاريخية من حياة الأمة العربية. وقد ظل الشاعر العربي في كل ذلك يناجي هذا المكان أو يبكيه أو يتضجر منه.

وقد وجد الشاعر العربي نفسه أمام واقع جديد يفرض عليه أن يكون مُلماً بكل هذه المتغيرات والأبعاد الجديدة التي لم يألفها في العصور السابقة. ولقد ودّدت الوقوف على علاقة الشاعر بالمدينة وكيف كانت سببا رئيسيا في الاغتراب، لما فرضته هذه المدينة من صراع في حياة شاعر هذا العصر وما خلقتة من نكبات نفسية وتعقيدات اجتماعية وسياسية متباينة وقد كانت المدينة بحق موطن هذا الاغتراب وما تزال كذلك. والمدينة فضاء مفتوح على كل الاحتمالات أتى يجد الإنسان فيها نفسه رقماً لا غير، هنا تهدم العلاقات الاجتماعية وتنصر القيم الروحية في بوتقة العدم والانهيار حين يعاني الفرد الوحدة والغربة، وهي مدينته بريق يهره في البداية ليكتشف صاحبها أن هذا البريق ما هو في حقيقة الأمر إلا خواء به كثير من القحط والجفاف والعدم.

والمعروف أن المدينة قد أسست عند اليونان من أجل راحته وسعادته؛ فقد كانت عندهم منبرًا للفكر والحق والحرية والجمال غير أنها افتقدت كل هذه المثل مع بداية العصر الحديث، وفي هذا يقول " مونيس بخضرة " من كتابه (تاريخ الوعي) " أن المدينة المعاصرة هي الأخرى لم تستطع أن تصحح مسارها، لتعود وتتمسك بوظيفتها الأولى السامية، فبعدما كان الصراع متفشيا في الطبيعة أصبح الآن منتشرًا في المدن، حيث أصبحت المدينة تمتص العنف بجميع تجلياته المنتشرة في الطبيعة الشاسعة بأريافها وقرائها ليحدث العكس تقريبا. البادية تنعم بالاستقرار والهدوء، في مقابل المدينة التي تتخبط في الجريمة والعنف والتشرد ⁽¹⁾.

غير أن العكس هو الذي ينبغي أن يكون كما يرى " مونيس بخضرة " ذلك أن الإنسان في الأصل قد هرب من بربرية الريف هروبا من الفناء المخين على الطبيعة القاسية.

من هنا كان إحساس الشاعر بالغرابة داخل المدينة أمرًا طبيعيًا عاديًا حيث أكسبت هذه المدينة موقفا جديداً لشاعر العصر، فوجدها لا تخلو من كونها مثلاً لأزمة انحلال الأخلاق وموطنا للصراع الحضاري والتعفن الاجتماعي. وقد أعلن ت، س. إليوت بعد نهاية الحرب العالمية الأولى في قصيدته " الأرض الخراب " The Waste- Land 1921، موقفه من هذه المدن (لندن) التي مثلت صورة خواء إنسان العصر من كل القيم.

وقد أضافت المدينة من قبل عند شارل بودلير Charles Baudelaire (1857- 1869) في ديوانه (Les fleurs du mal ,le spleen de Paris) إحساسا بالغرابة والوحدة إلى جانب تلك المعاناة النفسية التي كان يحس بها.

وقد استطاع شعر المدينة أن يكشف أمراض المجتمع البشري بشكل سافرواسقط جميع الأقنعة عن وجه حضارة الزيف.

كل هذه المعطيات الجديدة أوجدت غربة جديدة ومن نوع آخر في هذا العصر وقد توصل الدكتور حليم بركات " على أن الاغتراب مصطلح يركز على

موضوعات مشتركة بين العلوم الاجتماعية والنفسية والفلسفة والآداب، وبخاصة في زمن الحداثة وما بعدها، ومع هذا فقد ظل غامضا لأسباب عديدة منها تنوع تحديداته والنظريات التي يركز إليها، لذا يجب على الباحث أن يعتمد على منهج تحليلي نقدي لطبيعة العلاقات السائدة بين الإنسان، والمؤسسات والأنظمة السياسية والأوضاع الاجتماعية السائدة في المجتمع⁽²⁾. ويؤكد الدكتور محمد راضي جعفر ما ذهب إليه حليم بركات بقوله " لقد بات الاغتراب قضية تناولها الفلاسفة والمفكرين بالتحليل وتعاقبوا بالبحث والاستقصاء بعد نشوء المجتمع الصناعي من جهة وقيام الحربين الكونيتين وما رافقهما من مآسي وويلات من جهة أخرى حتى أصبح يقال أن في كل إنسان مغتربا"⁽³⁾.

وعن دور المثقف العربي حول هذا الموضوع يواصل راضي جعفر كلامه "ولقد عانى الإنسان العربي بعامة والمثقف العربي خاصة من اغترابات شتى واتسمت ردود فعله بأشكال شتى تراوحت بين الانسحاب من الواقع إلى هامش الحياة أو الرضوخ للنظام القائم والاندماج في مؤسساته أو التمرد الفردي والثوري الجماعي أو الهجرة إلى الخارج للبحث عن فرص أفضل"⁽⁴⁾. ولقد حاولت الدكتورة خالدة سعيد أن تربط بين الحداثة وتأزم الهوية عند المبدعين العرب إذ تقول:

" إن نسجًا جماليا لنصوص الحداثة العربية يكشف عن شخصيات متمردة، متأزمة، ممزقة بين عوالم متباينة، مفككة، متصدعة أو غريبة ملتبسة بين الحكمة والجنون، بين الآلهي والإنساني، بين الفاجع والهزلي بين التدين والكفر، بين القداسة والسقوط بين الانتماء والغربة"⁽⁵⁾.

وإذا ما حاولنا الربط بين هذه المفاهيم المختلفة للإغتراب والمدينة يمكن أن ندرك حالات الإحباط والانهيار التي مني بها الإنسان العربي والمثقف (الشاعر) بصفة خاصة؛ لما اتصل بالمدينة والاعتراب من مشكلات التفكك الاجتماعي والسياسي التي ألقت بهمومها على هذا المثقف فكان إدراكه - في

شعر بصفة خاصة - لطبيعة هذه الهموم واضحاً وظل - هذا الشاعر - يدعو إلى مجتمع لا تكبله النزاعات ولا الطائفية، تسوده علاقات التضامن والتفاعل الحرحى يتخلص من طبيعة المشكلة التي يعاني منها.

كل هذه الأوضاع جعلت من الشاعر العربي المعاصر كائناً مغترّباً عن نفسه ومجتمعه ومؤسسته، إذ اضطر أن يتكيف مع واقعه الأليم، وهنا نستطيع الكشف عن محاولات التغيير عن نفسية هذا الشاعر المحبطة والممزقة بآلام هذا الواقع العربي المتعفن الذي ولد منه شاعرًا مغترّباً عن ذاته وكيانه.

وإن المدينة في آخر الأمر هي هذا المجتمع الحديث بما حمله إحساس الشاعر العميق بالاغتراب عن الذات والمجتمع أو بين المجتمع والمؤسسات الأخرى.

" في مثل هذه الأجواء نجد أن فجوات عميقة ومتاهات فسيحة تفصل بين الواقع والحلم في الحياة العربية الحديثة " (6).

ومع ذلك لا يمكن أن نجزم بأن الشاعر العربي قد استسلم لهذا الأمر ورضى به، إذ يمكن من خلال هذا الشاعر عدة إجابات عن طبيعة مشكلة الاغتراب وعلاقته بالمدينة، فقد كشف الشاعر المعاصر عن:

- مصادر الاغتراب وأبعاده في هذه الفترة وبين إلى أي حد على أنها مرتبطة بالمرحلة التاريخية والتطورات الفكرية والسياسية للواقع العربي.

- قوة وعي الشاعر العربي لهذه المرحلة الزمنية التي ارتبطت فيها حياته بالمدينة كإطار مكاني ونفسي غير منظومة الاغتراب عن بقية العصور الأخرى.

- مدى وعي الشاعر بنوعية اغترابه وبدائل التعامل معه، وقيمه المواجهة والتمرد بغية التغيير والقضاء على هذا الاغتراب.

- وأكثر من ذلك كله مدى جماليات هذا الاغتراب وما عكسته قصائد الشعر العربي في هذه الفترة من قيم فنية على مستوى الإبداع والصور الجديدة التي طبعت بنظرات جديدة فنيا وفكريًا.

فقد كشف الشاعر المعاصر عن انعكاس الاغتراب الذي بات طردياً مع تعقيد الحياة وتعفن أوضاع المجتمع، فالشاعر أسرع من غيره إلى الإجابة بهذا الداء لأنه يتمتع بقدر عالٍ من الحساسية والتوتر والرهافة⁽⁷⁾.
وقد اقترن الاغتراب لدى شعراء المهجر في البداية بالحنين إلى الطبيعة فكانت رمزاً لأفراحهم وأقراحهم إذا اتخذوا من الليل صورا من خلاله تافه الأشياء ونقصانها وتاقوا إلى الأرياف وإلى القرية والكوخ واعتزلوا المدن وتغنوا بالحزن والألم.

وقد عانى الشعراء الرواد وبخاصة بدر شاكر السياب ونازك الملائكة، وعبد الوهاب البياتي، وبلند الحيدري أيما معاناة من الاغتراب، فوجدوا أنفسهم في عالم ضاعت فيه القيم الروحية والأخلاقية فافتقدوا أواصر الحب الإنساني، وحاولوا بكل طاقاتهم المادية والمعنوية مواجهة هذا الاغتراب والتغلب عليه، فحاولوا تأسيس مدن حاملة وحاولوا إحياء التراث وناشدوا الطفولة والماضي.

" لذلك اتخذ الشعراء الرواد مواقف متنوعة من المدينة تراوحت بين الرفض والقبول، كل بحسب الظروف التي نشأ فيها وأشكال الاغتراب التي عانى منها ... والموقف من المدينة يكاد أن يكون صدى الموقف من المجتمع"⁽⁸⁾.
ومن هنا وجد الشاعر المعاصر نفسه بين نوع من الغربة ونوع من القلق المستمر تباين تفكيره بين الوعي وغياب الوعي، كله كان مثمراً عبر فيه عن حالات الخوف والرغبة من هذا الواقع الجديد الذي فرض عليه، وكانت نظرته في كل ذلك نظرة متباينة من الاغتراب ومن المدينة في نفس الوقت، وفي كل ذلك نوع من الغربة التي لم يألّفها شاعر العصور الماضية، فأحس شاعر هذا العصر بقلّة الأمن وانعدامه وبالوحشة والتوجس من الحاضر والمستقبل، وتحولت الأشياء عنده إلى عناصر متشابهة لا يكاد أن يفرق بينها في أغلب الأحيان.

" ويكمن جوهر الغربة في الحياة وفي الفن وفي الأدب في تلك العلاقة التي توجد بين الموت والحياة وغياب الشعور بالأمن وحضور الخوف في الحياة " (9)

كانت كل هذه الأمور هي مصدر قلق الشاعر العربي ومصدر غربته الحقيقية التي حتمت تباين نظريته لفكرة الاغتراب.

وقد قلت فيما سبق أن الشاعر العربي خلال هذه الفترة لم يكن ليستسلم لهذا الاغتراب بل ظل يواجهه من أجل تحقيق رؤيا خاصة ربما نهل من خلالها عن موقف إنساني شمولي عام أو من أسلوب شخصي جعله أقرب إلى التطور والحركة والنمو، فحاول أن يصهر هذا الواقع المتعفن بأبعاد مختلفة من خلال توظيفه لقصص الخيال والهواجس والأساطير المختلفة التي تجسدت بصفة خاصة عند صلاح عبد الصبور وبلند الحيدري والسياب وعبد الوهاب البياتي مما منح للقصيدة العربية جمالية ذاتية خاصة وموضوعية من حيث الإحساس بالمشكلة انتقل فيها وعي الشاعر من إحياء رومانسي إلى وعي ذاتي سعى فيه الشعراء إلى إبراز رؤيا طالما شغلت بال المفكر العربي، كما فتحت أبصارهم على فشل القوانين الذي يحكم العلاقات الإنسانية داخل المدينة.

وربما كانوا يطرحون دائما هذا السؤال " الإنسان قلق، والحضارة سقيمة متعفنة، فما هو سبيل الخلاص ؟ " (10).

وربما توصل الشاعر العربي إلى ما ذهب إليه " أودن " « Oddon » في أن الإجابات إنما تنحصر في ثلاث هي: النفسية والاجتماعية والدينية.

إذا كان " أودن " يعتقد أنه بالإمكان تحقيق السعادة الفردية وحل أزومات الفرد والمجتمع من خلال أسلوب ذاتي يقوم على إطلاق حرية الغريزة وشجب السلطة " (11).

وهنا إشارة إلى الحل الفردي الذاتي الذي جعل الشاعر العربي يقاوم قهر الاغتراب والمدينة معاً.

وبذلك أخذ ينظر إلى العالم نظرة نفسية مشخّصاً من خلالها آلام الفرد والمجتمع داخل المدينة بما حملته معايير العصر من تطلعات جديدة. وكان إيمان الشاعر العربي بالتغلب على المشكلة قوياً وحاداً في الوقت ذاته، ذلك أن الفرد بمقدوره إصلاح المجتمع وتنقية الثقافة المتوارثة (ثقافة الانهزام) من عقول الناس وذلك بزرع بذور الأمل وشحن القلوب والعقول بضرورة التغيير والصبر على حل المشكلة.

ما جعل شاعر هذا العصر باعاً قويا مطالباً بالحق والعدالة والحرية. وهكذا كانت كل هذه المفاهيم والقيم هي جوهر الصراع في ضرورة التغلب على مشكلة الاغتراب والمدينة.

هذه المدينة التي رأى فيها الدكتور " مناف منصور " التناقض بين الخير والشر وباعتبارها مصدر للأحلام الساحرة ووجهاً آخرًا لتفاهة الأشياء والرفاهية المخدوعة الكاذبة.

« C'est-elle qui donne un nouveau visage à l'amour au rêve ... les hauts bâtiments qui incarnent la gloire, et le bonheur se sont en réalité que des cavernes ou se dissimulent l'approche la misère et le malheur »⁽¹²⁾.

وعليه يمكن أن نقول أن المدينة مثلت صورة حقيقية لاغتراب شعراء هذا العصر.

وهذا النوع يمكن إدراكه بصورة واضحة في شعرنا المعاصر إذا أنه ارتبط بحركة وعي المدينة كإطار مكاني مثلت نوعاً من الهجرة عند هؤلاء الشعراء من الريف إلى المدينة، فضاع الشاعر في هذه المدينة ونقل وجهة نظره وموقفه منها فكان لزاماً عليه أن يتعامل مع منعرج جديد في حياته حقق له رؤى مختلفة سواء تناسبت مع نظريته لهذه المدينة كموقف شخصي أو كانت موقفاً افتعالياً انعكس بشكل أو بآخر على الأسلوب كما يرى الدكتور أحمد المعداوي في كتابه " الشعر المعاصر ما بعد الحداثة ".

وعن موقف الشاعر المعاصر من المدينة يقول جابر عصفور "هذا الشاعر تظهره القصائد كائنًا عاديًا، شخصًا بسيطًا، لا يدعي أية بطولة، سوى بطولة الاعتراف بحزنه الذي يعبر عنه بمفردات الحياة اليومية في المدينة ونثره تراكميها. حتى في اغترابه الوجودي، في رحله كل ليل فهو كائن يتحدث عن تفاصيل عالمه المدني البسيط، المؤلف، المعتاد، وجدته الشعرية هي في موضوعاته التي يمكن أن يلحظها أي عابر سبيل، فلغته الخاصة لا تفارق لغة الحياة اليومية في المدينة، وخصوصا عندما تلتقط التفاصيل الصغيرة لقلعها الوجودي أو التمرد الاجتماعي⁽¹³⁾.

وإن كان الدكتور جابر عصفور يقلل نوعاً ما من فكرة اغتراب الشاعر المعاصر داخل مدينته ويجعل منه معبراً عن طبيعة المشكلة التي فرضت عليه، وكأننا به يجعله في مرتبة أي شاعر كان بوقاً لروح عصره، فإنه لا يمكن أن نغفل دور هذا الشاعر في التعامل مع المدينة بشكل مغاير للحياة اليومية العادية والدليل هو انتقال شاعرنا المعاصر في تطوره الفكري من الموقف الرومانسي الذاتي إلى الموقف الوجودي الفكري المبني على نقل ونقد صور هذا الواقع وإن كان الشاعر عبد المعطي حجازي قد مثل نقلة فكرية مغايرة للسياب أو صلاح عبد الصبور؛ ذلك أنه لم يعيش هذه المرحلة الرومانسية الأولى التي عاشها الشاعران في نظريتهما للمدينة، وإن كان الناقد رجاء نقاش يرى في القصيدة الأولى من ديوان حجازي (مدينته بلا قلب) والموسوعة تحت عنوان (عامي السادس عشر) صورة لهذه المرحلة الرومانسية في حياة الشاعر غير أن هذا الناقد يتعمق في صلب هذه القصيدة ويجعل منها مرحلة جديدة في تطور المجتمع العربي (سياسياً وفكرياً واجتماعياً). مما يجعل حجازي - فيما أرى - قد تخطى حدود الرومانسية الأولى إلى واقعية تجريدية وأخرى انتقادية في التعبير عن علاقته بالمدينة، وهذا النوع من الاغتراب في حد ذاته، موقف من العصر ومن المدينة التي لا تنفصل في صلبها عن تناقضات

هذا العصر، وهنا يكون الدكتور جابر عصفور قد قلّل من شأن نظرة الشاعر المعاصر في اغترابه عن المدينة.

وبعيداً عن كل هذا فإن الناقد يمكن أن يقع بين موقفين مختلفين في اغتراب الشاعر المعاصر من المدينة:

(أ-) الموقف الأول: وهو موقف قديم أي أن الشاعر المعاصر أحسن بهذا الاغتراب كغيره من شعراء العصور السابقة، ليصبح هذا المدلول يوحى بالإطار المكاني للاغتراب أي أن الشاعر المعاصر لم يحدد في اغترابه المكاني، ليصبح الموضوع عادياً باعتبار أن المكان رفيق الإنسان منذ وجد؛ لكنه اختلف عن الشكل الأول فإن كانت الإطالال هي بؤرة هذا الاغتراب في العصر الجاهلي؛ وإن كانت بغداد أو الشام أو القاهرة صورة لهذا الاغتراب بما ولده العصر العباسي من مفارقات مختلفة حتمت صورة قائمة في نظرة أبي العلاء والمتنبي نحو طبيعة العصر وولدت ثورة أبي نواس وتذكره لهذا العصر بل ونقمتة على الحياة والأفكار التي جعلت منه ساخراً من القيم رافضاً لها، هنا يصبح شاعرنا المعاصر مكرراً الأفكار الشاعر القديم مضمونا ومخالفه دلالة وهو ما يحتم على الناقد أن يؤيد موقف جابر عصفور من اغتراب الشاعر المعاصر من المدينة.

(ب-) أمّا الموقف الثاني فينطلق أساساً من الموقف الأول، بل يجب أن نعني وعياً تاماً أن الشاعر المعاصر قد استفاد وأفاد بمعنى أن الموروث الحضاري والفكري الذي أوجده الشاعر القديم كان معيناً خصباً للشاعر المعاصر؛ فهو قد حمل آهات الشاعر القديم وأضاف إلى ذلك الفكر الحضاري لهذا العصر وأسس اغترابه وفق هاذين المنهجين كما قلت سابقاً، وهنا يكون شاعرنا المعاصر قد أضاف إلى تراكمات العصور الأخرى ثقلأً جديداً احتتم اختلاف نظريته للاغتراب المكاني الذي كان في العصور الأخرى.

وتبقى المدينة قاصرة على أن تعطي مدلولاً شاملاً للاغتراب في العصر الحديث إذا جرّدها الشاعر من نظريته الفردية الخاصة، علماً أن العديد من

النقاد يرجحون أن موقف الشاعر العربي المعاصر من المدينة موقف مفتعل بتقليده لمدينة (ت،س،إليوت) أو غيره من شعراء الغرب.

كل هذا لا ينفي موقف شاعرنا المعاصر من المدينة، ولا ينفي ما أضافه إليها، فلا يمكن أن نهمل دور بغداد في تحريك مشاعر السياب أو ننفي تألم حجازي وإحساسه بنقاء الريف وزيف المدينة، وهو ما يجعل من المدينة - فيما أرى- نوعاً جديداً من الاغتراب أي أنه يجب الفصل بين أن نقول الاغتراب المكاني واغتراب المدينة لما في هذا النوع الأخير من تراكمات مختلفة، تجعل المدينة أكثر روحاً وأعمق دلالة في تحديد معنى الاغتراب بالشكل الحديث، وهنا يصبح مصطلح الاغتراب متغيراً لا يخضع للبناء اللغوي فقط وإنما يتطور بتطور العصور وتجدد الرؤيا.

ولا يشك أحد في أن موضوع المدينة حديث الظهور في أدبنا المعاصر ارتبط بالقرن العشرين وبمنجزاته المختلفة ولا يشك ناقد أن هذا الموضوع كان وليد تأثيرات فكرية وأدبية غربية انعكست صوره الشعرية من ت،س،إليوت، في "الأرض الخراب" و"الرجال الجوف" بصورة خاصة، إذ لا يكاد شاعر عربي يصور المدينة إلا وحمل عداوة إليوت للمدينة وموقفه من تهاوي الحضارة وزوالها، هذا وفي تراثنا العربي شواهد على الفزع من الشكل المدني وعلى الندوب التي خلفتها المدينة.

" فهذه ميسون بنت جندل شاعرة بدوية، تزوجها معاوية بن أبي سفيان ونقلها إلى حاضرة الشام، فثقلت عليها الغربة، وأكثرت من الحنين والوجد إلى حالتها الأولى" فقالت:

" لبيت تخفق الأرواح فيه

أحب إليّ من قصر منيف

ولبس عباءة وتقر عيني

أحب إليّ من لبس

الشفوف

وأكل كسيرة في كسر بيتي

أحب إليّ من أكل الرغيف

خشونة عيشي في البدر أشهى

إلى نفسي من العيش

الطريف

فما أبغي سوى وطني بديلاً

فحسي ذاك من وطن

شريف " (14).

ويحدثنا التاريخ العربي أن " أبا نصر بن شربن الحارث" المعروف بالحافي نزل إلى سوق بغداد فهاله ما رأى فخلع نعليه ووضعها تحت إبطه وجرى في اتجاه الصحراء وظل يجري ومن يومها لم يعلم عنه شيء.

"لا شك أن نزعة كل منهما في الصراع تختلف في باطنها عن الأخرى، فالأمر عند الشاعرة البدوية نابع من المقارنة بين حياتين، إحداهما سهلة بسيطة في البادية، والأخرى حياة أكثر عمقا وجدتها في المدينة الشامية، ... وهذا ضرب من الوعي بحركة النفس في صراعها بين ما درجت عليه من جهة وما آلت إليه من جهة أخرى، وهي في هذا أقرب إلى الروح الرومانسي في موقع الشاعر المعاصر من المدينة، ولكن موقف بشرين الحافي موقف فكري يتعلق بالجانب الخلفي الذي تغير بفعل المدينة كبيئة جديدة، والصراع هنا - كما يراه - بين القيم الإنسانية التي عاش الرجل من أجلها، والاعتداء على هذه القيم في عالم المدينة، فقرر الهروب حيث لا أحد" (15).

في هذه الجذور التاريخية لموقف كل من (ميسون) و(الحافي) من المدينة، صور لأصالة الإنسان العربي وتمسكه بالأهل والوطن وصورة أخرى للاغتراب والحنين وربما للرفض واتخاذ الموقف.

وقد تعبر الرواية الأولى والثانية عن مواقف الشعراء في العصر الحديث وتباين نظراتهم لفكرة المدينة وصور اغترابهم فيها وسأذكر نماذج

مختلفة لأشكال هذا الاغتراب. ذلك أن موضوع المدينة مستحدث، وقد فرض نفسه على الشعراء فقلما نجد شاعراً معاصراً لم يطرقة، فتسلل إلى معظم قصائدهم وانتقل مع الشعراء في تطوراتهم المختلفة من رومانسية وواقعية، إلى أبعاد اجتماعية وسياسية ليأخذ موضوع المدينة في اغتراب الشاعر المعاصر أنماطاً مزية مختلفة.

وقد كانت المدينة في رأي علماء النفس والاجتماع سببا في الإحباطات التي يحس بها سكان المدن، لما تحويه من صراع بين القيم (الرزيلة والفضيلة) وبين الذات والسلطة والحرية، وهكذا اوجد الإنسان نفسه في ظل هذا الصراع غربياً وحيداً، مما سبب له هروباً فكرياً خاصاً أو حينئذ إلى عالم الصفاء والنقاء (الريف) حيث الأخلاق الفاضلة والشعور بالراحة والاطمئنان النفسي، ما حتم على كل شاعر نظرتة الخاصة للمدينة.

وسأخذ بدر شاكر السياب كنموذج لاغتراب المدينة في الشعر العربي المعاصر
بدر شاكر السياب: المدينة بعد فكري وصراع نفسي

الحديث عن السياب وتجربة المدينة، حديث عن مرحلة من مراحل الشعر العربي أثناء العصر الحديث؛ ذلك أن السياب يعكس فترة من الصراع الفكري والسياسي الذي شهدته المدينة العربية (بغداد) في مرحلة من تاريخها إلى جانب المرحلة النفسية التي يعكسها شعر السياب.

" كان بدر شاكر السياب ينظر إلى المدينة بفلاحيته، فقد كان بطبعه رومانسياً، وكانت الرومانسية عنده وطن يعيش مرحلة تخلخل سياسي واجتماعي، رومانسية صغيرة ترزح تحت وطأة تقاليد اجتماعية قاتلة تجابه تخلف مجتمع الحديث عن السياب وتجربة المدينة حديث عن مرحلة من مراحل الشعر العربي أثناء العصر الحديث، ذلك أن السياب يعكس فترة الصراع الفكري والسياسي الذي شهدته المدن العربية (بغداد) في مرحلة من مراحل تاريخها إلى جانب المرحلة النفسية التي يعكسها شعر بدر شاكر السياب

شبه إقطاعي، شبه مستعمر، كانت رومانسية جزءاً من الثورة السياسية والاجتماعية إلى رفض⁽¹⁶⁾.

وربما كشف هذا الرأي عن المراحل الشعرية عند السياب وتصوراته المختلفة للزمن والحياة والموقف والفكرة في آنٍ واحد وفي هذا يقول الدكتور أحمد كمال زكي: "ويمكن أن نقسم شعر السياب ثلاثة أقسام: القسم الأول ويشمل غنائيه الرومانسية وفيه لا يخرج عن أمثال علي محمود طه، والقسم الثاني: يتضمن أشعار يوطوبياه في كل متناقضاتها ويمتاز بالتعقيد والغموض، والقسم الثالث: يقف عند أناشيد الموت المتمثلة في دواوينه الثلاثة الأخيرة، المعبد والغريق ومنزل الأفنان وشناسيل ابنة الحلي وأكثر ما فيها يمتاز بالصفاء والصوفية الرقيقة"⁽¹⁷⁾.

ومن خلال هذا الانقسام المتناقض في شعر السياب يمكن تصنيف المدينة ضمن القسم الثاني منه؛ لقد أحس السياب بفراغ نفسي روحي وعاطفي وإنساني، ويظهر هذا واضحا جليا في العديد من قصائد دواوينه "أزهار ذابلة 1947"، و"أساطير 1950"، ووضع آخر سببه العتبة السياسية في الانتماء ومن الشعور بمحاصرة المدينة له محاصرة روحية وذاتية واجتماعية، وربما من الإحساس بأن مملكته ليست من هذا العالم، ومن هذا كله انبثقت رؤيا أخرى في شعره متمثلة في العودة إلى جيكور.

لقد داهمت المدينة أحلامه فوصفها أنها مدينة مزدحمة مكتظة برؤى لم يألّفها وبعلاقات غريبة عن تلك البساطة التي جُبِلَ عليها فبدأ كما لو أنه مقحم عليها، أو أنها كانت مقحمة عليه، وخلق من كل ذلك عالماً جديداً مليئاً بالإيداع والامتناع.

"جيكور في شعر السياب تبدو وهي التربة التي ألقى بجذوره إليها ... واستطاع أن يحول تراثها إلى تراث فني نفسي وروحي جاعلاً من أشياءها صوراً لمشاعر حميمية، ورموزاً لحياة غنية، بكل المعطيات الإنسانية للعصر ومن خلالها ومن غيرها نظر إلى "بويب" نهرها الصغير ... واستعاد صورة "وفيقة"

وشباكها الأزرق ... فأعادنا إلى الحياة النظرية والبدواة منظوراً إليها من خلال كل ما في العصر من تعقيد اجتماعي وفكري وإنساني⁽¹⁸⁾.
يقول السياب من قصيدته "شباك وفيقة":

شباك وفيقة يا شجيرة
تتنفس في النبش الصباحي
الأعين عندك منتظره
تترقب زهرة تفاح
وبسبب نشيد
والرياح تعيد
أنغام الماء على السعف⁽¹⁹⁾

إلى قوله:

العالم يفتح شباكه
من ذاك الشباك الأزرق،
يتوحد يجعل أشواكه
أزهار في دعة تعبيق
شباك مثلك في لبنان،
سباك مثلك في الهند
وفتاة تحلم في اليابان،
كرفيقة تحلم في اللحد
بالبرق الأخضر والرعد⁽²⁰⁾

فيعود الشاعر بحنين دافق عذب إلى الريف الذي امتص طفولته
وصباه، حيث تذكر القرية والراعي والرعى التي شدته إلى أحداث ماضية
ارتسمت في ذاكرته من زمن، فأعادتها مأساة المدينة إلى الشعور، ومن قصيدته
(ذكريات الريف) التي قالها بتاريخ 1943/04/09 يقول هذه الأبيات:

شعاع من الماضي منير خاطري وذكرى لما ولى تعطير حاضري

تَلُمُ فيها دَمعة وابْتِسامَة وتَأْتِي فلا يَبقى على صبر صابر
لقد لاح من ذكرياتي بوادِ كر وإن هوى نفس بتلك البوادر
وابرز لي همي وكان مصوراً ذواهب أيام حان سوافر
فتلك رسوم الريف تحيا بخاطري كما عاش في الأوتار أنغام

ساحر

عليها جسور من جذوع نخيلها تئن وتشكو تحت أقدام عابر
كذلك فؤادي يعبر الحزن فوقه وعلى نهر جي وارداً بعد صابر
تذكرت سرب الرعيات على الربا وبين المراعي في الرياض والزواهر
ورنات أجراس القطيع كأنها تنهد أقدام على شعر شاعر
أقود قطيعي خلفي محاذراً وأنظر عن بعد فيحسر ناظري⁽²¹⁾
إلى قوله في آخر النص:

وكالزمان الماضي تلاشى ولم يعد إلى ذاكر أنيس الليالي الغوابر⁽²²⁾
ويقف السياب برومانسية رقيقة إلى نهر "بويب" يقاسمه الآلام ويشكو
إليه همه وضعفه، ليجد فيه عزاء لنفسه، إذ يقول:

يا نهر إليك بعد شتاتيه
صب يفيض الشوق من زفراته
حيران يوقف ضفتيك بلوعة
فيكاد يصرخ ضوقه عبراته
كم رافقتك فأنتك خطاه فبي
غدواته للمحب أو رحلاته
أفأنت تذكّره تحفظ عهوده
أم قد نسيت عهوده وسماته⁽²³⁾
إلى قوله:

ذهبوا فما في الروضى إلا نائح

متفرد بدموعه وأذاته

حلوا الجزير ملاذ كل معذب

ظمى الفؤاد وأنت بعض سقاته⁽²⁴⁾

وربما خلفت كراهية العصر وشقاء المدينة في نفسية السياب نظرة
سوداوية حولت حزنه من حزن نفسي عابر إلى حزن فكري سرمدى مكتنف في
بعض الأحيان بألم داخلي، وفي أحيان أخرى بفلسفة خاصة تبرز موقف
الشاعر، يقول السياب من قصيدة (سوف أمضي):

سوف أمضي أسمع الريح تنادي بعيداً

في ظلام الغابة للقاء ... والدرب الطويل

يمتطي ضجراً، والذئب يعوي، والأخول

يسرق النعم كما تسرق روعي مقلتك

فاتركني واقطع الليل وحيداً

سوف أمضي، فهي مازالت هناك

في انتظاري

سوف أمضي، لا هدير السبيل ضحاً رهيباً

يغرق الوادي، ولا الأشباح تلقى القبور

في طريقي تسأل الليل إلى أين أسير

ودعني أقطع الليل غرباً

إنها تربو إلى الأفق الحزين

في انتظاري

سوف أمضي حوّلي عينيك لا ترني إلينا

إن ساحراً فيهما يا أبي على رجلي مُسيراً

إن سرّاً فيهما يستوقف القلب الكسير

وارفعني ذراعيك فما جدوى العناق

إن يكاد لا يبعث الأشواق فيا

اتركيني هاهو الفجر، تبدي ورفاقي⁽²⁵⁾

ويعلن الشاعر غضبه من المدينة بصوت عالٍ إذ يراها موطن الفساد والصراع المادي فيزداد اعتباراً به منها ويخيل له أنها منظومة محكومة بقوانين العدم والتضارب والخراب تقيدها مفاهيم اجتماعية وأخلاقية فاسدة، وهو ما يصرح به في هذا من قصيدته (حفار القبور).

كانت مصابيح السماء تدر ضوءاً كالضباب

بين القبور الموحشات

وعلى الخرائب، والرمال، وكان حفار القبور

متعثر الخطوات يأخذ درجة تحت الظلام

وعلى مصايد في المدينة وهي تختف في اكتئاب

ويظل يحلم بالنساء العاريات وبالخمور

وخسست يده النقود لفم الابتسام

حتى تلاشى الظلام⁽²⁶⁾

إلى قوله:

تلك النقود بل البقايا من نفايات المدينة

وتظل أنوار المدينة وهي تلمح من بعيد

ويظل حفار القبور

ينأى عن القبر الجديد

متعثر الخطوات يحلم باللقاء وبالخمور!⁽²⁷⁾

وفي هذا يقول الدكتور عبد الرضا علي "المدينة عالم يكتنفه التناقض وتتسع فيه ثغرات الخراب توطره هذه المدينة بهالة من القوانين والأنظمة التي تحد من حرية الإنسان وتكبل توقه إلى معانقه طبيعته السمحة التي تنشد البساطة والاطمئنان، فراحت العلاقات تتدهور وأصبح كل شيء

يقاس بمعيار مادي وأضحى الإنسان متغرباً في واقعه، إذ لم تعد العلاقات التي كانت تفيض بالوجدان حميمة دائمة إنما احتواها التناقض والتذبذب وأمسى القلق جوهر الأشياء في عالم متضاد يشكو الأرق والتبرم⁽²⁸⁾.

ويؤكد السياب "ارتفاع المال كظاهرة مادية إلى مستوى الإنسانية الشامل، معرباً عن إلمامه الثقافي، فهو في قصيدة (المومس العمياء) ينهض من المعاناة الوجدانية إلى معاناة ثقافية وذلك إلى إشارة إلى المقولة الإنسانية هي أن المال شيطان المدينة⁽²⁹⁾.

يقول السياب من هذه القصيدة التي قالها عام 1953،

المال شيطان المدينة:

لم يحظ من هذا البرهان بغير أمجاد مهينة
 "فاوست" في أعماقهن بعيد أغنية فرينة
 المال شيطان المدينة ورب (فاوست) الجديد
 جارت على الأثمان وفرة ما لديه من العبيد
 الخبر والأسمال حظ عبيده المتذللين
 مما يوزع من عطايا لا لئالي والشباب
 والمومس العجفاء لا "هيلين" والظماً للعين
 لا حكمة للفرح المجذح والخطيئة والعذاب⁽³⁰⁾

لكنه يؤكد من ناحية أخرى أن المال هو عصب الحياة وهو الذي جعله يهاجر إلى الخليج، فالمال إذن جزء من الاغتراب ومنحة شخصية ظهرت جراحاتها في شعره.

"وأول قصائد ديوانه "أنشودة المطر" هي غريب على الخليج 1953 لا تعتبر عن تجربة الخاصة فقط وإنما هي تجربة جبل كامل، وليس فقط من العراقيين بل هي مجموعتان نزحت من البلاد العربية إلى دول الخليج، بعد أن ضاقت بها سبل العيش في ظروف اجتماعية واقتصادية طاحنة وهاجر السياب

إلى الكويت في هذه الفترة وظهر "المال" عنصراً جلياً من عناصر مأساته في هذه المرحلة⁽³¹⁾.

فيسخر الشاعر من تفاهة قيمة المال ومن نفسه فيؤكد أن العودة للعراق مستحيلة مادام المال يتحكم في قانون المدينة وما دام راتبه لا يكفي كمدرس، إذ يقول واحسرتاه ... فلن أعود إلى العراق! وأنت تنفق ما يوجد به الكرام على الطعام⁽³²⁾.

وربما حوّل هذا الضيق والتأزم النفسي والاقتصادي الذي عانى منه السياب أفكاره إلى تأمل ومحاولة للخلاص والانبعاث؛ من جديد بل ربما كان لكل ذلك نظرة نحو خلاص العراق وانبعاثها من جديد بل ربما تكون أنشودة المطر رمزاً آخر لخلاص الشاعر وثورته على المدينة في حد ذاتها أو ثورته على الوضع السياسي الذي شهدته العراق في تلك الفترة، لذا فإن اغتراب السياب لا يكاد يخلو من وقف سياسي كلما تحدث عن المدينة، بل تكمن الحقيقة في مدينة السياب كل مرة يعربها ويكشف حقيقتها ويذكرها وربما تعد تجربة السياب من أغنى التجارب عن المدينة إن لم تكن أولها؛ ذلك أن السياب قد استفاد من مورث ت.س. البيوت في تصويره للمدينة؛ فاستطاع أن يعطي للمدينة دلالتها الأسطورية كما حولها لرمز لكل الرذائل والأهواء وإن كان السياب متأثراً بالبيوت في هذا الجانب، فإنه لا يملك أن نقول إلا أن تجربة السياب مع المدينة تجربة قاسية أليمة، بالإضافة إلى ما كان يعانيه السياب من فقر وحرمان عاطفي انعكس على شخصيته وطفح على قاموس شعره حين وطأت قدماه بغداد من أجل العلم والدراسة، فشعر بوعي كامل ونضج قوى أنه الريفي القادم من جيكور.

وتستطيع القول أن أزمة المدينة انعكست في شعر السياب بطابع عكسي أسطوري حين جعل منها صورة للجفاف والخصب، بل إن السياب ربما وجد استحالة في وجود هذا الخصب لذا كان شعره دافقا بالحنين إلى براءة

الريف وبساطته "إن الإهداء للأسطورة يعني العودة إلى الريف، وإعلان الكراهية الدفينة للمدينة الحديثة" (33).

ويمكن أن نلخص الكلام عن غربة السياب داخل المدينة، يقول الدكتور مختار علي أبو غالي:

" لقد ظل السياب طوال حياته ينزف دمه
ويفسح مشاعره، ناعيا المدينة، ومطالبها بالعودة على
جيكور، فهو صدا المدينة بكل ما ترمز إليه
من أبعاد " (34)

ليوامش

1. مونييس بخضرة: تاريخ الوعي، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر 2009، ص 43- 44
2. حلیم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية، ط 1، 2006، ص 07.
3. محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العربي المعاصر، اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص 62.
4. نفسه ص 7.
5. خالدة سعيد: الحداثة أو عقدة جلجامش، عن مجلة مواقف العدد 51، 52، 1984، ص 15.
6. حلیم بركات الاغتراب في الثقافة العربية، ص 30.
7. محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، ص 11.
8. نفسه ص 33.
9. عبد الفتاح كيليطو: الأدب والغربة، ط 3، المغرب 2006، ص 8.
10. باربارا فقيريت (أدن) ترجمة: موسى بريزات، عن مجلة سلسلة أعلام الفكر العالمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، بيروت 1987،
11. Munaf Mansour, L'homme et la ville dans la poésie Arabe modern, Thèse de doctorat, Paris 3, tomme 1, P ; 2, 82.
12. جابر عصفور، رؤى العالم (عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر)، الدار البيضاء، المغرب، 2008، ص 102.
13. مختار علي أبو غالي، (المدينة في الشعر العربي المعاصر) مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، العدد 197، 1995، ص 8.

14. نفسه ص 10.
15. نفسه ص 10.
16. يوسف عطا الطريفي، (بدر شاكر السياب، حياته وشعره)، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008، ص 22.
17. أحمد كمال زكي، دراسات في النقد الأدبي، دار الأندلس ط2، مصر 1980، ص 253.
18. ماجد صالح السمراي، (الجذر المتحول)، مقال عن مجلة أقلام، العدد 12، السنة الثالثة عشر، وزارة الثقافة والفنون، بغداد 1978.
19. يوسف عطا الطريفي، بدر شاكر السياب، (حياته وشعره)، ص 436-437.
20. نفسه ص 44.
21. نفسه ص 44.
22. نفسه ص 44.
23. نفسه ص 49.
24. نفسه ص 49.
25. نفسه ص 193.
26. نفسه ص 270 ، 271.
27. نفسه ص 207 ، 271.
28. علي عبد الرضا، الأسطورة في شعر السياب، دار الرائد العربي، بيروت، ص 135.
29. مختار علي أبو غالي، عالم المعرفة (المدينة في الشعر العربي المعاصر)، ص 160.
30. يوسف عطا الطريفي، بدر شاكر، حياته وشعره، ص 284.
31. مختار علي أبو غالي، (المدينة والشعر العربي المعاصر)، ص 163.
32. نفسه ص 163.
33. إحسان عباس، بدر شاكر السياب، حياته وشعره، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط4، 1978، ص 261.
34. مختار علي أبو غالي، (المدينة والشعر العربي المعاصر)، ص 242.